في إنتظار الحرية

كل الحقوق محفوظة

لوزات للنشر والتوزيع والترجمة، 2021
الترقيم الدولي:
الأيداع القانوني: نوفمبر 2021
عنوان الكتاب: في إنتظار الحرية
اسم المؤلف: خوذيري نشوى
التدقيق اللغوي: صفاء لوزات
الغلاف: احمد الشافعي ملكي
الإخراج الفني: الحسناوي مشاط
عدد الصفحات: 80
أبعاد الكتاب: 14 / 20

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية، ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة وأقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي لوزات للنشر والتوزيع والترجمة

لوزات للنشر والتوزيع والترجمة
رقم الهاتف: 0542 87 57 82
الأيمايل: edutionlouzat@gmail.com

نشوى خوديري

في إنتظار الحرية

لوزات للنشر والتوزيع والترجمة

مقدمة المؤلف

تعرفت على ليلى بطلة الرواية على مواقع التواصل الاجتماعي حيث كانت تبث أوجاعها وتتجرع مرارة فقدانها لأبيها في بضعة جمل أثرت فيّ بشدة ، وقد كنت أتخيل في كل لحظة معاناتها وصعوبة ما مرت به .

تعرفت على ليلى عن قرب فلامست في روحها شيئا مني كان لديها من العزيمة والإصرار ما لدي ، ولعل ما دفعني لأخط هذه الرواية هو افتتاني بشخصيتها القوية وإرادتها الصامدة وكفاحها من أجل والدها .

ولا ريب في أنني أضفت لهذه الرواية لمساتي الخيالية الخاصة ، احتراما لرغبة صاحبة القصة وتداريا لأسرار شخصياتها .

أتمنى من كل قلبي أن تترك سطور هذه الرواية أثرا في قلب كل قارئ .

- نشوى خوديري.

أهدي هذه الرواية

إلى ليلى ووالدها أمير

بطلا روايتي اللذين علماني الكثير .

نوفمبر 2021 الساعة الواحدة ظهرا.

كانت "ليلى" تجول في شوارع المدينة ، في ذلك اليوم الشتوي البارد ، حيث تساقطت زخات المطر بهدوء وكان البرق يمزق ثوب السماء ، بدأ الناس بالتوجه إلى منازلهم منهم من يركض ومنهم من يحتمي من المطر ، لكن ليلى بقيت تواصل سيرها بين الأرجاء وتركت العنان لدموع السماء لتبلل محياها وروحها وحتى قلبها ، فهي كانت تحب السير تحت المطر لأنه يبهج قلبها ويغسل أحزانه ، فكانت كلما رأت المطر يهطل ، خرجت مسرعة لتسير تحته علها تنسى همومها وتجدد نفسيتها المتعبة ، ثم اتخذت مقعدا لها في الحديقة العامة ، وبقيت تتأمل الخيوط التي شكلتها حبيبات المطر وهي تتلاطم بالأرض مصدرة صوتا أطرب أذنيها بالفعل ، و سرحت أمامها وهي تراقب وجوه المارة الذين يأتون ويذهبون منهم من كان يبدو سعيدا ، ومنهم من كان يبدو تعيسا مثلها تماما ، فهي لم تنعم بالسعادة في حياتها وطالما كانت الطمأنينة حلمها .

أغلقت السماء أبوابها ليتوقف المطر ، فقامت ليلى من مكانها واتجهت نحو منزلها ، كان ثوبها قد تبلل بالكامل وامتقع حذاؤها بالوحل الذي خلفه الجو الماطر ، فكان السير على الطريق الزلق الذي امتلأ بالسيول والبرك المتفرقة عسيرا عليها ، فتحت باب المنزل بهدوء وتوجهت نحو غرفتها مسرعة ، وتمنت في داخلها أن لا تراها جدتها وهي بتلك الحال ، فطالما نهتها عن السير تحت المطر خوفا عليها من المرض ، خلعت حذائها وغيرت ثيابها ، وجففت خصلات شعرها الكستنائي ، ثم خرجت من غرفتها وهي تقلب نظراتها في زوايا المنزل الذي كان يبدو خاليا ، ولم يكن أي شخص من أفراد العائلة فيه ، دخلت المطبخ علها تجد زوجة عمها "رانيا" هناك كما تفعل دائما ، لكن المطبخ كان مغلقا ، فتحته فلم يكن هناك أحد ، تحسست المقبس بأطراف أصابعها فأرخى المصباح نوره على المطبخ المظلم ، فتحت باب الثلاجة و التقطت تفاحة ثم جلست على الكرسي لتتناولها ، خرجت من المطبخ بعدها وتوجهت نحو حجرة جدتها ، طرقت الباب بهدوء ونادت :

جدتي هل أنت هنا ؟؟

لكنها لم تسمع جوابا عن سؤالها ، فتحت الباب وكانت الغرفة مظلمة ولا أحد فيها ، أحست ليلى بقلبها ينكمش في جسدها ، سارت مسرعة نحو غرفتها ومدت يدها داخل حقيبتها لتبحث عن هاتفها ، حملته وحاولت أن تشغله لكن مع الأسف كان شحن بطاريته قد نفذ ولم تستطع تشغيله ، وضعته ليشحن بعدها ، وكانت قلقة جدا فأفراد

الأسرة لم يتعودوا على الخروج وتركها وحيدة دون إخبارها ، بقيت تحوم بين أنحاء غرفتها تارة تخرج منها وتارة أخرى تدخلها ، ومرت تلك الثواني ثقيلة على قلبها لكنها لم تستطع الصبر أكثر ، حملت هاتفها الذي لم يكتمل شحنه بعد ، وشغلته لتتصل بعمها "حمزة " لكنها تفاجأت بأكثر من خمس مكالمات لم ترد عليها منه ، بالإضافة إلى مكالمتين من زوجته "رانيا" ومكالمة من ابن عمها "آدم " كلها مكالمات فائتة لم ترد عليها لأنها لم تكن تعلم أن هاتفها نفذ شحنه !!، شكلت بسرعة فائقة رقم عمها "حمزة" ، لكنها تفاجأت بصوت مزعج يقول:

- رصيدك يصل إلى حد أدنى نقترح عليك تعبئته .

اشتعلت نيران الغضب بداخلها فألقت بالهاتف جانبا ووضعته ليشحن وبقيت تجول بين أرجاء غرفتها قلقة على ما يحدث ، كان قلبها يرن كالمنبه داخل جسمها ، وماهي إلا لحظات حتى سمعت رنين هاتفها فتوجهت نحوه مباشرة ، لكنها أجفلت عندما كانت المتصلة صديقتها "منال" لم تكن تريد أن تحدثها في ذلك الوقت ، فضغطت على زر الرد وهتفت :

- أهلا منال

جاءها صوت منال من الخط الآخر :

- أهلا حبيبتي ليلى كيف حالك ؟

أجابتها :جيدة ماذا عنك ؟

منال: أنا بخير الحمد لله ، ما خطب صوتك هل حدث شيء سيء ؟

ليلى : لا ولكن .. منال سأطلب منك شيئا .

منال: تفضلي .

رصيد هاتفي فارغ وأريد منك أن تعبئيه من أجلي ، لا أستطيع الخروج في الوقت الحالي ، هل لك أن تفعلي ، هناك مكالمة عاجلة يجب أن أجريها .

قالت منال : حسنا سأفعل ستصلك التعبئة بعد لحظات قليلة ، لكن ما الذي حصل؟

ليلى : لا شيء عزيزتي سأخبرك لاحقا.

ثم قطعت ليلى المكالمة وعادت إلى سجل المكالمات عساها تعثر على مكالمة جديدة ولكن لا جديد ، جالت بين الأرجاء تنتظر وصول التعبئة من منال في أقرب وقت ، وفجأة رن الهاتف ، وقد كانت "رانيا " زوجة عمها هي المتصلة قفزت ليلى من مكانها بسرعة البرق وردت ، فجاءها صوت رانيا المتحدج بالعبرة :

ليلى هل تسمعينني ؟

هتفت ليلى : أسمعك رانيا مالذي حدث ؟

أجابت رانيا التي كانت في أوج حزنها :

عزيزتي جدك مريض جدا ونحن الآن في المستشفى في قسم العناية المركزة .

صاحت ليلى :

قسم العناية المركزة !! هل عاوده ألم القلب مرة أخرى ؟؟

رانيا : نعم ، وبشدة هذه المرة .

هتفت ليلى : حسنا أنا قادمة ، سآتي حالا .

وضعت الهاتف في حقيبتها وارتدت معطفها الشتوي وأوصدت باب المنزل وخرجت راكضة وبعد لحظات من السير ، جاءها صوت رنين الإشعار الذي يدل على وصول التعبئة من منال ، لكن ليلى تجاهلتها ، ركضت بسرعة وأوقفت سيارة أجرة لتتوجه نحو المستشفى ، انحدرت الدموع اليتيمة على وجنتيها ، وراحت تلوم نفسها لأنها خرجت من المنزل ، تمنت أن تكون بجانب جدها في تلك اللحظات العصيبة ، ثم وصلت أخيرا ، ركضت بين أنحاء المستشفى تبحث عن جدها وأخيرا لمحت عمها حمزة من بعيد ، أسرعت نحوه وقالت :

هل جدي بخير ؟

صاح عمها غاضبا :

إنه في العناية المركزة ، أنت متأخرة جدا ، لقد اتصلت بك أكثر من مرة ، لماذا لم تردي ؟

قالت ليلى نفذ شحن الهاتف فلم استطع تشغيله وعندما شغلته رأيت مكالماتكم الفائتة ، ولم أستطع الاتصال لأن رصيدي فارغ .

رمقها عمها بنظرات باردة مشحونة بالغضب ، وواصل طريقه إلى الخارج ، ارتمت ليلى في حضن رانيا وأجهشت بالبكاء ، خرج الطبيب من الغرفة التي كان بها جد ليلى وقال :

مع الأسف لم نستطع إنقاذه ، عظم الله أجركم .

شهقت ليلى من الفزع و هوت أرضا وهي تشعر بأن الزمن قد توقف من حولها ، شعرت بالفراغ يحيط بها من كل الجهات ، والصوت الوحيد الذي دوى في أذنيها هو صوت الطبيب :

"مع الأسف لم نستطع إنقاذه ، عظم الله أجركم " . كان جدها أقرب الناس إليها في العائلة ، كان أكثر من شجعها على كل خطوة خطتها ، وقف معها ، ساندها حتى تصل إلى ما وصلت إليه وهاهي روحه الطاهرة تفيض إلى بارئها مخلفة إياها وحيدة .

***

كانت الساعة تشير إلى الثالثة ليلا ، استيقظت ليلى من نومها فجأة تنهدت بعمق ، ثم رفعت يديها لتمسح الدموع المتمردة على خديها عندما تذكرت أن جدها قد فارق الحياة يوم أمس ، حاولت النوم من جديد لكنها لم تستطع ، وراحت تقاوم العبرات التي تجمعت في مقلتيها .

وقفت من مكانها وأسدلت الضوء على الغرفة الحالمة ، ثم جلست على كرسي مكتبها ، سرحت أمامها لوهلة عندما تذكرت بأن عمها قد كلفها بمهمة كانت أصعب مما تخيلت ، فقد طلب منها أن تخبر والدها السجين بموضوع وفاة جدها ، حملت قلمها وراحت تخط على الورقة :

جدي العزيز أحييك تحية صادقة بريئة ، وأنت تحت التراب ، للمرة الأولى سأحاورك وأنت بعيد عني ، لو تعلم كم أشعر بالوحدة ، لا أعرف كيف سيكون بوسعي إخبار أبي بأنك انتقلت إلى رحمة بارئك ، ستكون زيارتي له يوم الغد في السجن ، أسوء زيارة على الإطلاق ، لكن لا تخف سأنجح ، سأحقق حلمي الذي كان حلمك وحلم جميع أفراد العائلة ، أحبك دائما ، حفيدتك ليلى .

طوت الورقة ووضعتها في صندوقها ، ولأنها كانت تعلم بأنها لن تنام فتحت الصندوق وحملت مذكراتها التي أهملتها كثيرا في الآونة الأخيرة ، لم تكن بداخلها أي رغبة للكتابة لكنها أحبت أن تقرأ سطورا منه ، فتحت الصفحة الأولى واسترسلت تقرأ بدون أن تتكلم :

" اسمي ليلى في العشرين من عمري ، طالبة في الجامعة ، تخصص حقوق ، أطمح أن أكون محامية ، سأكتب هذه المذكرة ليس لتذكرني بالماضي الأليم و لا لأسترد ذكرياتي كأغلب من يكتبون مذكراتهم وإنما أريد أن أكتب لأني عثرت على السبيل الذي سيفرغ ما بداخلي من أفراح وأتراح ، سوف أكتب لأني أريد من قلبي أن يرتاح قليلا " .

أوت 2006

لن أنسى أبدا تلك الأيام الجميلة التي كنت أعيش فيها بسعادة مع والدي في منزلنا الجميل ، حيث لم أتجاوز الخامسة من عمري ، رباني والديَ على الأخلاق والدين ، ومنذ صغري كنت قوية الإيمان ، استمرت حياتنا على النحو الجيد أنا وأمي وأبي إلى أن جاء يوم .. كان يوما من أسوء أيام حياتي ، قلب كل شيء رأسا على عقب ، وكم تمنيت أن لا يأتي لكنه جاء مع الأسف .. كان يوما قائظ الحر من أيام شهر أوت ، تلقى أبي اتصالا من صديقه أحمد الذي طلب منه اصطحابه بسيارته إلى المحطة ، خرج أبي لأخذه فهكذا كانت طبيعة عمله ، وأثناء طريقهما من المنزل إلى المحطة التقيا بصديق آخر لأبي مع ابنه الشاب ، فركب معهما ليوصلاه هو الآخر ، لكن شجارا نشب بين صديقي والدي ، وتخاصم أبي مع ابن صديقه المسمى يوسف ، وبينما كل منهم يخاصم منافسه ، طعن أحمد صديق أبي بسكين ، ولسوء الحظ كان هذا الأخير مصابا بداء السكري مما أدى إلى موته على الفور ، عاد أبي برفقة أحمد إلى البيت ولم يبلغ رجال الأمن على ما حصل ، جلسا بغرفة الجلوس لساعات ، ونام أبي في فترة الظهيرة ، لكن صديقه لم يستطع النوم ، وفي تلك الأثناء أتت الشرطة فهرب صديق والدي على

الفور من النافذة ، بينما كبل رجال الشرطة يدي أبي واصطحبوه معهم ، ذلك المشهد كان مروعا بالفعل لم أرى مثله في حياتي ولا أريد أن يتكرر أمام عيني فمجرد الحديث عنه يجعل جسدي يقشعر تأثرا ، سافر القاتل أحمد إلى الخارج بطريقة غير شرعية ، وبقي والدي يقاوم كل التهم الموجهة إليه ، باعت أمي منزلنا الجميل لتدفع تكاليف المحامي ، وبقينا ننتقل من مكان لآخر ، نستأجر البيوت ، بعدما باعت أمي السيارة وكل ممتلكات أبي الذي كافح لآخر لحظة في المحكمة وباح بكل ما عنده ، ولكن كل هذا كان عبثا فقد حكم عليه بالسجن المؤبد بتهمة القتل العمدي ، كان ذلك أسوء خبر سمعناه تدهورت صحة جدتي كثيرا بعدما علمت بأن فلذة كبدها دخل السجن ، أما أمي فقد أغمي عليها يوم المحكمة ودخلت المستشفى بعدما ارتفع ضغط دمها ، ومكثت فيه أكثر من أسبوع ، وكنت أنا صغيرة وقتها ، وقد تأثرت لبعد والدي عني كثيرا ، كانوا يقولون لي بأنه يعمل بعيدا ، لكني كنت أؤمن بأن في الأمر سرا ما وكل ما حدث معنا كان بسبب تواجد والدي في مسرح الجريمة وعدم تبليغه على ما رآه ، والمشكلة أن أبي اتهم بالقتل وهو بريء لم يقتل أحدا .

***

نوفمبر 2006

في قاعة المحكمة ، جلست بجانب أمي على مقاعد الانتظار وأنا لا أعلم لماذا كنت هناك ، كان التوتر باديا على ملامح أمي ، أخذ الحاجب ينادي أصحاب القضايا واحدا تلو الآخر للمثول أمام القاضي ، وفي هذه الأثناء لمحت أبي من بعيد مكبلا بالسلاسل ومعه شرطيان ، لم أتمالك نفسي وصرخت :"أبي" وركضت نحوه لكن أمي أمسكت بي ولم تسمح لي بالذهاب إليه ، بكيت كثيرا وبقيت أمي تحاول تهدئتي وفجأة نادى الحاجب باسم أمي فتقدمت وسحبتني معها للداخل ، والكلمة التي مازالت تدوي بأذني حتى الآن كلمات القاضي : انتهت الجلسة بطلاق الطرفين والحضانة للأم .

كنت منتصبة بينهما أنظر إليهما نظرة استغاثة

وكأنني أطلب منهما استحالة ،

واقفة في أسوأ حالة

ودموعي تذرف باستمالة ،

لعل أحدهما ينظر إلي ويتراجع ، لكنهما رميا برمح إلى منتصف آمالي .

فجروا به آلامي .

وتلاشت به أحلامي .

وبعثروا به رؤوس أقلامي .

انطفأ بريق عيني وأنا أنظر للسماء وأدعو الله برجفة وبكاء.

أتساءل ماهذا الابتلاء هل سينتهي بنا العناء أم لازال متواصلا هذا الجفاء ؟ .. منتشرا في كافة الأرجاء ..بكيت ترجيت أبي أمي رجاء لا تجعلاني أتجرع مرارة فقدانكما .. لا تتسببا في حزني رجاء ، لا تتركاني أضيع بين شوقكما وكلما نقص شوقي لأحدكما زاد للآخر أريد إكمال حياتي بينكما كما اعتدت ، لكن صراخي وبكائي كانا بلا جدوى .

انتصر الطلاق وافترقا !!

لن أنسى أبدا تلك الأيام العصيبة التي عشت فيها كيتيمة حرمت من والدها ، أو بالأحرى كظمآنة ترى الشلالات أمامها ولاتستطيع شرب قطرة منها ، كانت أمي التي انهارت بعد دخول والدي السجن وبعد الطلاق ، تحاول إسعادي بشتى الطرق وكذلك جدي وأعمامي ومع ذلك فلم يستطع أحد تعويضي ما فقدت ، لن أنسى ذلك اليوم عندما ذهبت لزيارة والدي في السجن بعد طول غياب ، كنت أتخيل أن يكون المكان الذي يقيم به أبي جميلا جدا لكنه كان السجن نعم لقد كان السجن ذاك المكان الذي يأخذ منا أشخاصا قد أخطأوا ليعاقبهم ويؤدبهم لكنه أحيانا يأخذ منا أحبة كالملائكة لا ذنب لهم ، لم أتوقع لحظة دخولي للسجن أن هذا المكان سيكون الأحب لدي في الأيام القادمة لأن أبي يقيم فيه وأسوء مكان في نفس الوقت لأنه سلب أبي مني أغلى الناس على قلبي ، كانوا قد أخبروني بأن أبي يعمل في السجن لكني كنت واثقة بأن هناك ما يخفونه عني .

أضحى يوم السبت هو المفضل لدي لأنه يوم زيارتي لأبي ، كنت أترقب هذا اليوم بنفاذ صبر طوال الأسبوع ومع أن مدة الزيارة كانت قليلة ومع أني كنت أرى والدي خلف الشباك فقط إلا أنني كنت سعيدة جدا بحديثي مع أبي كل أسبوع .

ماي 2012

مرت سنوات على الحادثة استعادت أمي توازنها المعنوي والمادي كذلك ، أما أنا فأصبحت على دراية بقضية أبي المظلوم و كان إيماني بعودة والدي إلي ذات يوم يزداد أكثر فأكثر .

لن أنسى ذلك اليوم أبدا لا يمكنني نسيانه ، كنت في العاشرة من عمري في ذلك اليوم العصيب ، أتذكره بكل تفاصيله . كنت جالسة أمام التلفاز أشاهد الرسوم المتحركة عندما أتت أمي إلي وقالت :

تعالي يا ابنتي هناك ما يجب أن أقوله لك .

ذهبت إليها وجلست معها على السرير ، فباشرت بالحديث :

ابنتي العزيزة تعلمين جيدا كم أحبك ، وماذا أستطيع أن أفعل من أجلك .

ازدردت ريقها وواصلت :

تحملت الكثير من أجل أن تكوني سعيدة ، مع أنني لم أستطع أن أكون الأم والأب في نفس الوقت لكني بذلت كل جهدي لتكوني سعيدة حبيبتي .. والآن أصبحت كبيرة ما شاء الله وأعتقد بأنك ستفهمين ما سأقوله لك وستقدرين ظروفي يا ابنتي .. بداية أنا أحبك ، أحبك كثيرا أكثر مما تظنين ، وجودك في هذا العالم أكثر ما جعلني سعيدة .

أجبتها : وأنا أيضا أحبك يا أمي .

قالت بتوتر :حبيبتي لقد .. قررت ..أن أتزوج .

كانت كلماتها أشبه بقنبلة انفجرت بقربي لم أستطع أن أستوعب حقيقة ما سمعته ، شعرت كأن العالم قد انتهى فعلا . ولم أكد أشعر بشيء من حولي ، شعرت بألم في رأسي فأمسكته بيدي وقلت بحدة :

مستحيل ، أرفض أن يحل أحد مكان أبي ، من المستحيل أن يربيني رجل آخر يا أمي أنا لا أريد هذا .

عزيزتي الأمر ليس كما تظنين ، قررت أن أتزوج وأذهب للعيش معه في مدينته بعيدا عن هذا المكان ، لذا يا صغيرتي سأضطر إلى تركك عند منزل جدك ستعيشين بسعادة معهم ، جميعهم يحبونك ولا أحد سيؤذيك هناك فكوني مطمئنة .

قاطعت كلامها وأنا أشعر كأني مخدرة غائبة عن وعيي ، كان البكاء جوابي الكافي على قنابلها التي فجرتها على مسمعي ، رفعت رأسي للسماء وقلت باكية :

لماذا يا الله ، لماذا يحدث هذا معي لماذا لست كأي إنسان لماذا لا أستطيع أن أعيش مع والدي كأي إنسان لماذا .. سأعود يتيمة مرة أخرى ، سأحرم من أمي كما حرمت من أبي ، سأعود وحيدة ، لماذا تفعل الحياة كل هذا بي أنا بالذات ؟!

أجابت أمي التي وقفت مذهولة أمام طريقة بكائي :

الحياة ليست كما نريدها دائما يا ابنتي .

قلت بغضب : وهل كانت الحياة كما أردتها يوما ؟ لا أبدًا كنت وحيدة دائما تمنيت العيش مع أبي وأن تكونا معا ، تمنيت أن يكون لي أخت ، تمنيت أبسط الأشياء لكنها لم تحدث ! فمتى ستكون الحياة كما أريد ؟

حاولت أمي أن تعانقني لتهدئ من روعي فقد كنت في حالة جنون ، لكني لم أسمح لها وابتعدت مواصلة بكائي الهستيري ، قالت أمي :

أتفهم رفضك لكنك عندما ستكبرين ستدركين أنه الحل الصائب ستقدرين ظروفي يا حبيبتي .

ثم أردفت:

سنتراسل ، سآتي لزيارتك بين الحين والآخر ، وأيضا .. أنت ستأتين لزيارتي يا غاليتي ، زواجي لا يعني أنني سأفرط فيك ! سأتركك وحدك قليلا .

ثم قامت من مكانها وأوصدت الباب ، وتركتني متسمرة في مكاني ، أحدق في الفراغ أمامي ، في صراع مع أفكاري لا رفيق لي إلا دموعي .

***

جويلية 2012

مرت الأيام بسرعة ، كانت أمي قد أعدت نفسها وأضحت جاهزة لحفل الزفاف المرتقب ، أتذكر جيدا عندما دخلت المنزل بعد ما انتهيت من اللعب خارجا ، وجدت أمي تحزم أمتعتي ، أدركت في تلك اللحظة بأن وقت الفراق قد حان ، ابتلعت الغصة التي سدت حلقي وبقيت أنظر بعيون دامعة إلى أمي التي لم تنتبه لوجودي ، وفجأة التفتت إلي وقالت :

عزيزتي أنت هنا ؟ تعالي ، انظري لقد جهزت أشياءك ، عمك قادم اليوم لأخذك .

أجهشت باكية وارتميت في أحضان أمي التي بكت هي الأخرى بحرقة ، بكينا كثيرا ، بكت كل منا كما لم تبك من قبل ، قلت باكية :

أحبك كثيرا يا أمي .

فأجابت باكية هي الأخرى :

وأنا أحبك يا ابنتي .

كم هي صعبة لحظات الفراق ، لكن ليست المأساة في فراقك من تحب أبدا ، بل المأساة الحقيقية هي بقاء عقلك وقلبك مع من تحب ، كنت أدرك جيدا بأن فراق أمي لن يهون علي وبينما نحن متعانقتان نبكي في مشهد يبكي الحجر ، سمعنا طرقات على الباب ، فأدركت أنه عمي ، مسحت أمي دموعي ، قبلت رأسي وقالت بصوت متحشرج بالعبرة :

حان الوقت لتبدأي حياة جديدة ، كوني قوية حبيبتي .

في المقعد الخلفي لسيارة عمي كنت جالسة أنظر من زجاج النافذة والعبرات تشق سبيلها على وجنتي المتوردتين ، رحت أتذكر كل لحظة قضيتها مع أمي ، عاد بي الزمن إلى الوراء حيث كنت أعيش مع أبي وأمي بسعادة ، كنا مثالا للأسرة السعيدة ، وتذكرت يوم اختفى أبي فجأة من دون سابق إنذار ، ومر شريط ذكرياتي أمام عيني ، فبكيت كثيرا ، كان عمي يسمع شهقات صوتي ويرى عبراتي لكنه لم يعلق . فاليوم رحل حضن كان يأويني ، رحل قلبي وانقطع وتيني ، أتخيل الحياة كيف ستكون بعدها ، كيف سأتحمل فراقها وبعدها ، وكيف سيحلو لي النوم من دونها ، هل سيبقى طعم الحياة كقبلها ؟ ، الأيام ستتسارع وستراودني الأحلام ، وحياتي تمر كأنها شريط أفلام ، كتبها مخرج ومن حزنها جفت الأقلام ، أو ربما كتب بدايتها وترك نهايتها للزمان ، رائحتك يا أمي مازالت تفوح ، وصورتك من عيني لم تزوح .

أخيرا لمحت بيت جدي ، فمسحت دموعي وقرأت في سري بعضا من آيات الله علها تهدئني ولو قليلا ، ابتلعت غصتي ونزلت حيث المجهول ينتظرني وحياة جديدة تترقبني .. الجميع كان لطيفا معي وكلهم فرحوا بوجودي بينهم وعاملوني على أني واحدة منهم ، كنت أدعي السعادة رغم الغصة التي تسد حلقي والدموع التي تطل من شرفات مقلتي منتظرة الوقت المناسب لتفرغ جعبتها .

***

لعل أصعب شعور هو أن تبتسم أمام من حولك فيظنونك سعيدا ، لكنك ما إن تخلو بنفسك حتى تنفجر باكيا ، هكذا كنت أنا فقد كنت أتصنع الابتسامة لكني كلما وجدت نفسي وحيدة أجهشت باكية ، لم يكن التعود على حياة جديدة مختلفة تماما عن السابق بالأمر اليسير علي ، كنت حاضرة غائبة ، موجودة في منزل جدي غائبة عند أمي التي لم يبق على حفل زفافها سوى أيام ، كانت الذكريات تسيطر علي أتذكر كل لحظة جميلة قضيتها مع أمي فأبتسم وأتذكر كل لحظة سيئة بيننا فتمتلأ عيناي بالدموع المؤنسة لوحدتي .

مع الأسف نحن لا نشعر بأهمية وجود الأشخاص من حولنا إلا عندما نفقدهم ونفقد الأمل من عودتهم وعودة تلك اللحظات معهم ، فأنا لو كنت أعلم بأن الحياة ستمنعني من ملامسة أبي أو رؤيته لكنت قضيت كل وقتي بجواره ولو كنت أدري أن الحياة ستيتِّمني مرة ثانية بأخذها أمي مني إلى مدينة أخرى لما كنت أغضبتها أو رفضت لها طلبا ، ليت الحياة كانت كما نريد ليت الرياح تجري بما تشتهي سفننا ولو لمدة وجيزة .

***

أوت 2012

ركبت مع عمي "حمزة " سيارته وتوجهنا نحو قاعة الحفلات حيث حفل زفاف أمي ، حرصت على الذهاب متأخرة ، ولم تكن لدي أي رغبة بالذهاب أصلا لكنني قاومت مشاعري وذهبت من أجل أمي ، دخلت القاعة وحرصت على جعل أسارير وجهي متفتحة ، أجفلت عندما رأيت أمي بثوبها الأبيض تتوسط المكان وكل الأنظار موجهة إليها كأنها نجمة عرض مسرحي ، تسمرت في مكاني ولم أستطع الحراك وكلما خطر ببالي في تلك اللحظة كان والدي ، وما أخرجني من صمتي إشارة أمي لي بأن أذهب إليها ، ازدردت ريقي وتوجهت نحوها ، ربتت على شعري بحنان وعانقتني ثم طلبت مني البقاء إلى جانبها ، كنت أكتم عبراتي بصعوبة وحاولت جاهدة أن لا تظهر علي علامات الاستياء لأن لا أفسد بهجة أمي ، وبينما أنا واقفة بجوارها لمحت عريسها قادما ببذلته الرمادية ، شعرت بقشعريرة تسري جسدي وكان كلما اقترب منها شعرت بخنجر يقترب أكثر من قلبي ليشقه ، تناقصت ذرات الأكسجين من حولي تدريجيا حتى كدت أختنق .. خرجت مسرعة نحو الخارج وملأت رئتي بالهواء ، توجهت مباشرة نحو سيارة عمي ، ومن حسن

حظي أني وجدته مازال هناك ، ركبت المقعد الخلفي للسيارة وهتفت بصوت مختنق :

أعدني إلى المنزل بسرعة من فضلك .

قال بتعجب :

بهذه السرعة تريدين العودة ؟ الحفل لم ينته بعد .

أجبت بغضب :

أرجوك أعدني إلى بيت جدي .

تنهد ثم قال :

حسنا كما تشائين .

فتحت نافذة السيارة وتنهدت الصعداء فقد صرت في أمان بعيدا عن أولئك الأشخاص الغرباء عن جو الحفل الخانق ، وعن أمي أيضا ، أمي التي فرطت في ابنتها وتركتها تركت مدينتها وأهلها وكل شيء تحبه وذهبت لتبدأ حياة جديدة من الصفر بعيدا عني ، كبحت دموعي قدر الإمكان لكي لا أفسد ذلك اليوم البهيج بالنسبة لأمي ، وقررت أن أنسى أن لدي أمًا ، قررت أن أبدأ حياة جديدة من الصفر مثلما فعلت أمي.

بين جدران الزنزانة هو وحيد ،

في زنزانة أبوابها حديد ،

ينتظر بداية يوم جديد ،

يأتي فيه خبر يطفئ ذلك اللهيب ،

تمر الأيام والشهور ، ثم السنوات والدهور ، وهو عالق مأمور،

أشتاق إليك يا أبي كشوق الليل للقمر ، وكشوق الأرض للمطر ،

وأنتظر يوم عودتك بفارغ الصبر ،

كنت أميرة وأنت الحامي ،

وفراقك اليوم يا أبتي أدماني ،

فجر جراحي وآفاق أحزاني ،

ليتك يا أبي تراني ، ليتك تسمع أنين بكائي ، ليتك تلمس أناملي لتحس حرارة وجداني ، أشوق لرؤيتك بعد عناء طريق ، يبدأ من بزوغ فجر إلى غروب شمس مرورا بثلاثة أبواب حديد .

وقلبي يرفرف ومن حرارته يذوب الجليد ، أدخل وأنتظر بضع ثوان ، وتمر على أنها سنين .

لهفتي لرؤيتك ترتعش لها الأقدام .

ومن شوقي لك لم أعد أفرق بين الحقائق والأحلام .

أراك تأتيني يا وتيني مبتسما ، بعيناك البراقتان ،

تمسك الهاتف بيديك المرتجفتان .

نتحادث ، لنتبادل الأفراح والأحزان وختامها يكون بضحكة من القلب ، ونهاية للشوق .

أحبك يا أبي بعدد ذرات الهواء .

وبعدد النجوم في السماء ، وبعدد قطرات الماء .

كان قلبك وطنا انتميت إليه ، وقد بتت أشعر بالغربة لأنني أنتمي إلى قلوب غيره .

فراقك سم لا ترياق له ، وأملي بلقائك أمل لا مثيل له .

رحلت عني ولم ترحل مني يا أبي ، يا أمني ويا مأمني .

كنت مشتاقة جدا إلى أبي ليته كان يسمع كلماتي، صار يشغل بالي أكثر من المعتاد ، جالسة ، واقفة ، نائمة أفكر به ، صراع داخلي يزعجني ، أفكار متراكمة تزعزعني ، أسئلة كثيرة تجول بخاطري ، لا أجد من يجيب عنها ، اعتدت الوحدة وأصبحت أفضلها برغم قسوتها ، أصبحت سندا لنفسي ، كلما شعرت بالضعف لجأت إلى الله ليقويني أنا

وأبي ويؤنس وحدتنا الموحشة ، أعتقد بأني تعودت على الحياة في منزل جدي الجميع طيبون ، جدي وجدتي كذلك ، أعمامي ونسائهم ، جميعهم جعلوني أشعر بالدفء العائلي ولم يحرموني من الحنان ، لكن حنان أبي كان من نوع خاص ، فأبي هو ملاكي وأسوتي ، كلماته الحانية مصدر سعادتي دائما ، صارت أمنيتي الوحيدة أن يخرج أبي من السجن لتكتمل عائلتنا ، أؤمن ببراءته ، وجميع أفراد عائلتي يفعلون ، لكن إثباتها للعدالة كان هو المشكلة التي نغصت علي حياتي .

مرت الأيام .. وأنا في بيت جدي .

بين الطرقات أمشي .

لا أدري أيها طريقي .

الحياة أرهقت خيالي .

والشمس أحرقت كياني .

والعين تذرف دموع الحنين .

لماذا أيتها الحياة تراهنين على تعذيبي ؟

ألم يكفك حزني وآلامي ؟

أم أنك تريدين هدم سقف أحلامي ؟

كفاك عبثا .. فمأساتك هزت كل بدني .

وعذابك أرهق كل فؤادي .

لكني لن أدعك ترقصين على أوتار أحزاني .

نعم لقد حان وقت تغييري .

وقت قوتي وانتهاء مأساتي .

سأبدأ صفحة جديدة رغما عنك .

وأرمرم ما كسر فيها وما عطل .

وسلاما على معجزة القدر .

مارس 2013

لن أنسى أبدا ذلك اليوم ، عندما ذهبت لزيارة أمي ، ونسيم الشوق يملأني ، لم أرها منذ زواجها ، منذ ستة أشهر ، كنت في غاية سعادتي ، نزلت من سيارة عمي الذي أوصلني ، فرأيتها ، رأيت ملاك قلبي ، شعرها الكستنائي المجعد المنسدل خلف كتفيها ، وعيناها العسليتان الواسعتان كأنهما سماءان أحلق بهما بحرية ، وابتسامتها الجذلة التي تعلو شفتيها ، حدقت في وجهها بتمعن فتجمعت العبرات في مقلتي لتنذر عن الهطول ، لم تتغير مازالت كما تركتها آخر مرة ، جميلة فاتنة ، رقيقة ومتفائلة ، لكن هناك شيء شد انتباهي ، شيء لم يكن موجودا في أمي التي عرفتها سابقا ، وهو بطنها الذي تكور أمامها ، حدقت فيها بغير تصديق ، هل هي حامل حقا ؟ تحدثت معها على الهاتف لكنها لم تخبرني . بقيت صامتة وتاهت الكلمات مني ، لم أعرف ماذا يجب أن أقول ، سارت أمي نحوي واحتضنتني ، ارتميت في حضنها ، فشعرت كأن العالم مدني بدفئه ، شقت الدموع طريقها على وجنتي ،

أما أمي فبقيت تربت على شعري بحنان ، تقبل جبيني ، تمسك بيدي بين يديها ، تمسح دموعي وتقول :

لماذا هذه الدموع ، لا تبكي حبيبتي أرجوك ،

ثم تحضنني مجددا ، وتقول :

لقد كبرتي يا صغيرتي ، وازددت طولا .

قلت مبتسمة :

اشتقت إليك كثيرا .

فحضنتني مرة أخرى ، ثم قالت وهي تلمس بطنها :

حبيبيتي ، انظري سيحقق الله أمنيتك ، وستكون لك أخت كما تمنيت ، إنها في طريق الوصول .

ابتسمت ، إبتسامة حزينة ، فقد تمنيت أختا ، أختا من أبي وأمي ، تعيش معي ، أحكي لها آلامي وأحزاني ، تشاركني جذلي وحتى أشجاني ، لكن في هذه الحال ، ستكون أختي أفضل مني بكثير ، ستعيش مع أمها وأبيها ، ستحظى على كل أنواع الحنان التي حرمت منها أنا ، ستسلبني عطف أمي ، وسأكون أنا كمتطفلة على حياتها ، شعرت بالقشعريرة عند تفكيري بهذه الطريقة ونظرت إلى بطن أمي بخبث . دخلت مع أمي منزلها العصري ، حيث كان كل شيء جميلا ، ومرتبا ، ومن الجيد بالنسبة لي أني لم أرى زوجها فأنا لم أذهب إلى أمي إلا بعدما تأكدت

منها أنه لن يكون هناك . كانت أمي تبالغ في اهتمامها بي ، تطعمني بيديها ، وتعانقني في كل لحظة حتى تقطع أنفاسي ، وبين الفينة والأخرى تقول لي ، " أحبك يا ابنتي " ، فرحت بتلك الزيارة ، لكن ما أزعجني حديث أمي المتواصل عن جنينها المرتقب ، راحت تريني مشترياتها من أشياء تخص طفلتها ، و تحدثني عن الأسماء المحتملة ، كل هذا أزعجني وجعلني أشعر بالنقص أو ربما بالغيرة . مر يومي بسلام وكانت ليلتي هادئة ، نمت بين ذراعي أمي ، وكانت أجمل ليلة قضيتها في حياتي وتمنيت أن لا تنتهي ، في صباح اليوم التالي قدم عمي لاصطحابي ، ودعت أمي التي أضحت في ناظري أروع أم ، وعدت إلى مدينتي حيث سبيلي في الحياة يستمر .

***

ماي 2013

أهلا "ليلى" كيف حالك يا ابنتي ؟

بخير أمي ماذا عنك ؟

حبيبتي أبشرك لقد رزقت ببنت جميلة كالقمر أسميتها "تسنيم"

.

مبارك لك ، حفظها الله

إذن عزيزتي أ لن تأتي لرؤية أختك ؟

لا أظن ذلك ، سأفعل ذلك في المرة القادمة .

لا بأس يا ابنتي ، مع السلامة ، اعتني بنفسك .

أغلقت خط المكالمة وسلمت الهاتف لعمي وقلت :

لقد أنجبت أمي طفلة .

قال ببرود :

مبارك لها .

وذهب في سبيله ، أما أنا فبقيت تائهة وسط أفكاري ، أحدق في الفراغ أمامي ، فقد صرت أختا كبيرة ، وصارت لي منافسة على عطف أمي ، شعرت بالشفقة على نفسي في تلك اللحظة . فتاة دخل والدها السجن وهو بريء وحكم عليه بالسجن المؤبد ، تطلقت أمها من أبيها السجين لتصبح ضحية زواج فاشل ، تنتقل مع أمها من منزل لآخر ، ومن مدرسة لأخرى ، لم تنعم بحنان الأب كأي طفل ، لكن الحياة لم تكتف من هذا القدر بل أضافت .. تزوجت أمها وبنت حياتها من الصفر بعيدا عنها ، وتركتها للعيش مع أشخاص ليسوا قدر المسؤولية ، ثلاثة أعمام كل منهم يهتم بنفسه ومنهم من يهتم بعياله ، جدة عجوز لا يمكنها أن تعوض مكان الأم في أي شيء ، وجد قد يكون حنونا لكن مرض القلب يعكر صفو حياته ، نظرت إلى حالي ، حالي المزرية من يُتم ووحدة فحتى الأصدقاء لم أنعم بصديقة مثالية ، كنت منطوية جدا ، لا أحب الاختلاط بالناس ، وأفضل الوحدة ، محاطة بعدد من الناس أحبهم وأثق بهم ولكنني لا أجد بينهم من يفهمني ، رفعت أناملي المرتجفة لأمسح العبرات المتمردة التي انحدرت على وجنتي المتوردتين ، صببت فنجانا من القهوة ، وارتميت على كرسيي ورحت أرتشف قهوتي المسائية التي أعشقها ، فذوقها مزيل لألمي ورائحتها الزكية تبعث في روحي الأمل .

***

أفريل 2020

مرت الأيام .. انتقلت إلى الثانوية وكان توجهي أدبيا ، لأنني أعشق الأدب ، مرت سنتي الأولى في الثانوية على ما يرام ، كانت سنة رائعة بالفعل برغم مشاقها وصعوباتها ، أصبحت أزور أمي بين الحين والآخر ، أما أختي "تسنيم" فكانت آية في الجمال والبراءة ، وكنت أحبها كثيرا ، لن أنسى أبدا ذلك اليوم ، عندما أتى عمي إلي وقال :

ليلى ، لقد اتصلت أمك الآن وعلمت منها أن زوجها انتقل إلى رحمة الله ، بعد صراعه مع المرض .

هتفت في عدم تصديق :

لا أصدق ! رحمة الله عليه . أرجوك خذني إليها ، يجب أن أكون مع أمي و تسنيم في هذه الأثناء .

غيرت ثيابي بسرعة وخرجت خلف عمي متوجهين نحو مدينة أمي ، حزنت كثيرا من أجل أمي فهاهي قد أضحت ضحية لزواج فاشل

مرة أخرى ، وصارت لها يتيمة يجب أن تربيها بنفسها ، وصلنا بعد مدة طويلة ، كانت أمي ذابلة ، شاحبة ، ودموعها تنحدر من مقلتيها ، تحتضن "تسنيم" ذات السبع سنوات ويبكيان في مشهد حزين جدا ، طوقتهما بذراعي أنا الأخرى وبكيت معهما ، قلت باكية :

الله يحبك يا أمي صدقيني ، فهو كرمك بتربية الأيتام .

وواصلت أمي نحيبها وعويلها ، أما أنا فرحت أنظر إليها وإلى تسنيم نظرة شفقة ، كان زوجها رجلا طيبا ، لم يؤذيني أو يجرحني بكلامه يوما ، وكان يحب أمي وتسنيم ويهتم بهما كثيرا ، وهاهو خلفهما وحدهما من دون سند .

مرت أيام على الفاجعة ، استأجرت أمي شقة لتعيش فيها مع ابنتها ، وواصلت أنا حياتي عند جدي ، كنت أجتهد و أواظب على الدراسة لأنه يجب علي الفوز بالبكالوريا من أجل أبي الذي يثق بي ، وأمي التي مازالت في فترة اكتئاب ، مصدومة إثر موت زوجها ، كنت قد قررت دراسة المحاماة ، وهذا لأكون محامية وأستعيد حق أبي ، فأنا بطبيعتي أحب الجرأة والتحدي ، ولن يكون هناك مكان أنسب من وقوفي بجوار أبي في قاعة المحكمة ، أمام القاضي ، درست بجد ، اجتهدت وحفظت ، سهرت الليالي ، وكافحت حتى أصل إلى ذلك اليوم ، وهاهو يأتي .. أجول بين زوايا المنزل ، والقلق يسري في كياني ، والحماس يكاد يقضي علي ، أنتظر عودة عمي الذي تكلف مهمة رؤية النتيجة بنفسه وزفها إلي ، شعرت برأسي يؤلمني ، ربما لأنني لم أحتسي قهوتي ، أفرغت فنجانا من القهوة ، واتخذت كرسيا قرب الباب ورحت أرتشف

قهوتي سيدة وحدتي ، التي تحسن مزاجي في غالب الأحيان ، كان الدعاء لا يفارق شفتي ، وبينما أنا على تلك الحال ، دخل عمي فوقفت مباشرة ، ونظرت إليه بلهفة وهو صامت ، نظر إلي بتمعن ثم قال :

_ مع الأسف ، لم تنجحي يا ليلى .

سقط فنجان القهوة من يدي وهوى إلى الأرض ليصبح فتاتا ، حدقت في عمي وصحت :

محال ، هذا محال لقد اجتهدت كثيرا حتى أصل إلى هذه اللحظة .

ضحك عمي وسلمني ورقة كانت في جيبه وقال :

مبارك فوزك ، كانت نكتة مني يا ليلى .

وواصل ضحكه ، أما أنا فأمسكت الورقة بين يدي في عدم تصديق وتمعنت النظر فيها وكدت أسقط أرضا من هول مفاجأة عمي ، لقد نجحت ، سأفرح أبي وسأبهج أمي ، ضحكت وقلت لعمي :

سامحك الله ياعمي لقد أفزعتني .

أطلقت جدتي التي كانت تقف خلفي زغرودة طويلة ، فتوجهت نحوها وقبلت جبينها ، ثم قبلت يد جدي أيضا ، وانهالت علي التهاني ، وكانت تلك الفرحة أعظم فرحة في حياتي فلا فرحة تضاهي فرحة النجاح .

***

أخاطب نفسي عن كل ذلك الصمت الذي يخيم بداخلي .

أتسائل عن سبب قلة الشغف وانطفاء الأمل .

فقلبي بات أشبه بوجه طفل مزقته أظافر الحياة .

أشعر وكأنني أكبر بسرعة مخيفة .

وكأنني هرمت قبل أن أصل الخمسين حتى .

قبل أن يملأ البياض لون شعري .

أصبحت كالذين يعيشون حياة الخمسين في عمر العشرين .

أخوض حربا نفسية قاسية نوعا ما .

أكره فيها ما أحب وأحب فيها ماكنت أكره .

أرى قلة الأصدقاء وكثرة العابرين .

ما أصعب أن يشيب شعورنا في وقت يجب أن تزدهر فيه مشاعرنا تجاه الأشياء .

من كان يظن أن الحال سيصل بنا لكل هذا ؟ لماذا كبرنا مبكرا ؟

أصبحنا نبدو أكثر نضجا واستقامة رغم أننا نتهالك .

لكن لابأس هذا النضج المبكر يصنع منا آفاقا بعيدة .

فإن لم تكن في العشرين من عمرك قويا ، فلاتنتظر القوة بعد ذلك .

تعبت حقا ، تعبت من مقارنة نفسي بأقراني .. أرهقني التفكير في قضية أبي .. اخترت تخصص المحاماة ، وقررت أن أستعيد حق أبي بنفسي ، وها أنا على مشارف حياة جديدة تترقبني ..

بسم الله الرحمن الرحيم والسلام عليكم ، إلى شمسي وقمري إلى سادس حواسي الخمس ، إلى ثامن أيام أسبوعي ، وإلى شهري الثالث عشر ، إلى أبي .

أبي الحبيب أرفع قلمي وأكتب لك هذه الكلمات ، الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات فقد فزت بشهادة البكالوريا كما وعدتك ، تمنيت أن تكون معي في هذا اليوم ، تمنيت أن تكون أنت هو الشخص الذي يزف إلي بشرى فوزي ، ولكن تعبث الأقدار بنا ونقول دائما الحمد لله ، أنا مشغولة جدا هذه الأيام ، تمنيت أن أزورك لأخبرك بنفسي ولكن الوقت ليس بيدي ، اخترت تخصص المحاماة . أتمنى أن تكون كلماتي قد أفرحتك لأنك أبي سأقف في هذه الحياة وقفة عز ، يا أروع أب في الدنيا ، أرجو أن يحفظك الله لي دائما يا قرة عيني . ابنتك ليلى .

طويت الورقة ووضعتها في الظرف وأرسلتها إليه مع عمي .

انتقلت إلى الجامعة ، كان عامي الأول رائعا جدا ، كنت أدرس بجد ، و أكافح لأصل إلى يوم تخرجي .

***

نوفمبر 2021 الساعة الرابعة صباحا.

أغلقت ليلى مذكراتها ، وضمتها إلى صدرها ، أغمضت عينيها ، وتركت العنان لعبراتها لتسقط بالقدر الذي تشاء ، تألمت كثيرا عندما قرأت مذكراتها وتذكرت الماضي ، فقد هاجت كوامن الشجن في داخلها ، فأحيانا لا نبكي لأننا ضعفاء بل لأننا صمدنا وكنا أقوياء لفترة أطول مما يجب .

أعادت المذكرة إلى الصندوق ، وتناولت ورقة وقلما ، وراحت تخط : بسم الله الرحمن الرحيم والسلام عليكم .. عجز القلم عن الكتابة .. وعجز القلب عن التعبير ، وعجزت الكلمات عن التناثر ، وعجزت الدموع عن السيلان .. وعجزت الحياة عن التوقف ، لأن الحياة مكتوبة علينا أن نعيشها كما خلقنا الخالق الواحد الأحد .

الحياة مليئة بالمفاجآت السارة والحزينة ، وما أصعب المفاجأة الحزينة وهي موت أغلى من نملك ، ولأن الموت حق ، والحق صعب لا تبديل فيه ، فهذه الحياة قد علمتني الصبر ، علمتني السكوت رغم

الأحداث ورغم المشاكل ، ورغما عني وعن أي مخلوق فإنا نسكت غير أن السكوت صعب في وقت أنا بحاجة فيه إلى الكلام ، لأن الكلام يبعد الحزن ، ويبعد الآهات التي تأتي من أعماق القلب .. من أعماق قلبي المجروح الذي ينزف دما ، ولا أجد من يوقف هذا النزيف .. لم أكن أتوقع أن الحياة دنيئة لهذه الدرجة ، دنيئة لدرجة الصفر ، فيعود القلب للنزيف مرة ثانية وثالثة وعاشرة ، لأن الحياة لا تستحق كل هذا العناء .. وكل هذا الاهتمام .. لقد جرحت كثيرا ، من أعماق قلبي ، فقد مات جدي يا أبي ، مات وتركني وحيدة مرة أخرى ، مات من كنت أعده أبا من بعدك ، لم أستطع أن أتكلف هذه المهمة الصعبة ، وهي القدوم إليك وإخبارك ، لذا اخترت كتابة رسالة تفجر ما بداخلي لتنقله لك ، أحبك دائما يا أبي ، ابنتك ليلى .

طوت الورقة ووضعتها في مغلف ووضعتها على المكتب ، أسندت ظهرها على الكرسي وأغمضت عينيها تترجى النعاس ليخيم على جفونها ، وبينما هي في تلك الحال سمعت آذان الفجر ، فقامت من مكانها ، توضأت وصلت ركعات الفجر ، وسبحت ودعت لجدها بالرحمة ، قرأت دعاء الصباح ثم قامت من مكانها ، وتوجهت نحو سريرها لفت البطانية حول جسدها وأغمضت عينيها اللتان أحاط بهما السواد بسبب الأرق وراحت تترجى نوما سريعا ، لكن جفونها المثقلة بالإرهاق خانتها ، فبقيت تحدق في الظلام لمدة ، وبعد لحظات من الأرق تسلل الكرى إلى عينيها ، فغاصت في سبات تخللته كوابيس مخيفة .

أشرقت شمس يوم جديد ، وليلى نائمة على سريرها ، وجدها تحت التراب ، وقلبها ينفطر أسفا عليه .. تقلبت في فراشها ، فتحت عينيها فأدركت بأن النهار قد أرخى سدوله ، قامت من مكانها ، رتبت سريرها ، وتوجهت نحو الحمام لتغسل وجهها .. حيت جدتها ، ارتشفت فنجان قهوة ، ثم سرحت شعرها وارتدت ثيابها وخرجت من المنزل ، توجهت نحو مكتب البريد ، وأرسلت الرسالة إلى أبيها ، ثم ذهبت إلى المقبرة لتزور قبر جدها للمرة الأولى ، بللت قبره بالماء وقرأت سورة الفاتحة وبكت ، راحت تعتذر منه لأنها لم تكن موجودة معه عندما كان يتألم قبل موته ، وتتخيل البيت بعده ، تتخيل طعم الحياة بدونه ، فتبكي ، ثم كفكفت عبراتها وودعته ، فلعل أصعب اشتياق هو عندما نشتاق لشخص لا يمكننا رؤيته أبدا خاصة إن كان ميتا ، لكن ليلى كانت قوية جدا ، كانت بطلة دائما ، بطلة والدها ، وبطلة أمها ، وستكون بطلة جدها أيضا ، فأحيانا نلجأ للتجاهل كي تمضي بنا الحياة دون تعثر ، كي ننسى قليلا ذلك الجرح الدفين ، نحتاج أن نسد على الأذنين كي لا نسمع ذلك الضجيج ، الذي في الداخل ، كما نحتاج للتخطي كان شيئا لم يكن .. هذا ليعتاد الجميع على صلابتنا وتوهجنا ، ليتفاجئوا بعدم عزلتنا وهروبنا كما في السابق ، لنخبرهم بأننا ارتدينا ثوب المقاومة ، لنحارب الحياة ، فتغلبنا مرة لنغلبها مرتين ، فبعد الآن لا يجب أن يصل صوتك المنهك إلى مسامعهم يا ليلى ، يجب أن تكوني صامدة جل الصمود ، ليتناثروا عنك بعيدا ولتحتفي ببعدهم بإقامة حفل وداع ، فتشربين عليها كؤوس النصر والاستعلاء فما هم إلا سلسلة من نيازك أوجه ، لا تملك بين ثناياها سوى أقنعة مخادعة لمن حولها ،

نعم فهم من كنا نرى جمال الدنيا ورائهم ووراء كلماتهم ، هم من خدعنا ببصماتهم وها نحن اليوم في أعينهم نكرة مجردة ، يرسمون على شفاههم بسمة ملؤها الجحود والنكران ، سنبقى نتسائل دوما ، هل كنا نستحق تلك الصفعات الخبيثة ؟ تلك الطعنات الأليمة التي أدمت ملامح ثغراتنا !! لكن لا بأس يا ليلى فالحياة لا تتوقف هنا ، ستسمر الحياة بحلوها ومرها وأنت يجب أن تصمدي ،فحتى رسولنا الكريم عليه أزكى الصلاة والتسليم مات ، ولم تتوقف الحياة عنده !

***

مرت الأيام .. عادت ليلى للدراسة في الجامعة وبدأت تتعود على فراق جدها ، تلقت التعازي الحارة من معارفها ، وقد ازدادت رغبتها في أن تكون محامية أكثر ، كانت في غالب الأحيان تتذكر جدها ، وأبسط الذكريات معه ، صار يشغل تفكيرها ، ويزور أحلامها دائما ، ويسكن عقلها ، ويقطع قلبها ، تتساءل دائما ، هل عقولنا هي التي تحتوي الذكريات ، أم الذكريات هي التي تحتوي عقولنا ؟! فالذكريات احتوت عقلها وسيطرت عليه ! هل نحن من نتحكم في قلوبنا أم هي التي تتحكم فينا ؟! ، فنحن بوسعنا إغلاق أعيننا عن أشياء لا نريد رؤيتها ، ولكننا لا نستطيع التحكم في قلوبنا كي لا نشعر بأشياء لا نريد الشعور بها .

تجلس على كرسي مكتبها ، ترتشف قهوة المساء ،

بعينين محدقتين في السماء ،

مودعة الشجن والعناء ،

تتذكر الأحبة والأصدقاء ،

الأموات منهم والأحياء ،

تتذكرهم كلهم بلا استثناء ،

فيئن قلبها شوقا ، لتلك الذكريات والأمسيات ،

التي لطالما تشبثت بها بقوة ، فهي الآن كقارب تائه في جوف محيط ،

لا تفرق بينهم من الصديق ومن الوسيط ..

صممت في قرارة نفسها أن تتخطى العقبات ، وبابتسامة جميلة على ثغرها دعست بقدمها على الرفات ، هيهات هيهات ..

حاولت أن تبدأ من جديد ، حاولت أن تنسى فبالرغم من أن النسيان صعب إلا أنه أحسن حل لحالها ، ثم فتحت كتابها الذي كانت تقرأه وانغمست في كل صفحة مع رشفة قهوة ، فلا جليس خير من الكتاب بالنسبة لها ، مع أنه لا يكلمها ولا يسمعها ، لكنها تكلمه وتسمع صدى صفحاته .. وتجد فيه الأمن والسكينة اللذين أضحت بحاجة ماسة إليهما أكثر من حاجتها إلى السعادة ،

فوجدت في الكتاب أبا يحنو عليها فيستقبلها دائما ، ويعدها صغيرته المدللة .

***

ماي2024 الساعة العاشرة صباحا .

بعد ثلاث سنوات ..

وقفت ليلى على المنصة ، بأوصال مرتجفة ، أمام عشرات الوجوه التي تترقب مضمون رسالة مذكرة التخرج .. تنفست بعمق ، ثم ابتسمت وهي تنظر لأمها وجدتها ، اللتان كانتا أكثر من انتظرا هذا اليوم بعد أبيها ، ثم تنظر إلى أساتذتها ، وأعمامها وأصدقائها ، ومعارفها ، نظرت إلى لجنة التحكيم بثقة ، ثم قالت بقوة مصطنعة :

صباحكم سعادة ، شكرا لتواجدكم .

ثم شرعت في تقديم فحوى رسالتها ، وبعد دقائق ، كانت قد انتهت ، وانتهى كل شيء ، ولم تعد تنتظر سوى قرار لجنة التحكيم وأسئلتهم .. تعالى التصفيق في القاعة . فتنهدت ليلى الصعداء ، ثم رفعت بصرها عن أوراقها ، لتنظر إلى الوجوه المبتسمة ، أشارت أمها إليها أن أحسنت ، ثم تذكرت جدها ، ووالدها الذين انتظرا هذا اليوم

بفارغ الصبر.. قاومت دموعها ، ثم أشاحت بوجهها نحو لجنة التحكيم .. لم يبق الآن سوى كلمات منهم ستجعلها تبدأ حياة مهنية جديدة .

فور نزولها من المنصة ارتمت في حضن أمها ، ثم قبلت جدتها وعانقتها ، وعانقت صديقتها منال التي طالما كانت شريكة دربها في فترة دراستها الجامعية .. انهالت التهاني عليها من كل جهة ، فراحت تبادلها بالشكر والابتسامات الجذلة .

كانت منال هي المسؤولة عن استقبال المهنئين ، وبجانبها تقف رانيا التي راحت تصف أطباق الحلويات على المائدة ، والجميع كان سعيدا بذلك اليوم الحافل .

مارأيك أن ألتقط لك صورا يا ليلى ؟ قال آدم ابن عم ليلى ، الذي هو في مثل سنها ، وتخصص في دراسة الهندسة المدنية لكنه اكتفى بدراسة ثلاث سنوات فقط .

ابتسمت ليلى وهي تنظر لحماسته فهو منذ صغره ، يحب فن التصوير ، ولا يمكنه أن يفوت مناسبة سعيدة دون أن يلتقط عشرات الصور ، وكانت ليلى تحب رونق روحه الطفولية ، فهو مبتسم دائما .

أجابت ليلى مبتسمة :

بالطبع ، كيف أفوت عليك فرصة كهذه أيها المصور الهاوي .

رفع آدم حاجبيه وقال :

أنا مصور هاوِ ! سترين سألتقط لك صورا مذهلة .

ثم ضحكا في انسجام ، عقبت ليلى :

أعلم ذلك يا أخي آدم ، أعلم بأن صورك مذهلة .

عبس آدم عند كلماتها الأخيرة ، فالمشاعر التي كان يكنها لليلى ليست مشاعر أخوة ، بل هي عواطف أخرى لم يعرف ماهيتها بعد .

استمر الحفل ، وليلى تتوسط المكان ، كيمامة بيضاء جذلة ، لا تكاد السماء تسعها لتحلق فرحًا ، التقط لها آدم العديد من الصور ، في كل أرجاء القاعة ، وتلقت العديد من الهدايا .. وبين الفينة والأخرى يأتي مهنئون جدد ، فتتولى منال التي وقفت عند بوابة القاعة مهمة توجيههم و استقبالهم ، وتتولى رانيا وبقية النسوة ، تقديم الحلويات وأنواع الأطعمة التي انشغلن في تحضيرها برفقة ليلى منذ مدة .. أما والدة ليلى ، فقد كانت سعيدة جدا بذلك اليوم ووقفت تتأمل ابنتها بنظرات ملؤها الإعجاب والفخر .

ها قد انتهى كل شيء .

ها قد أضحت سنوات الحفظ والدراسة المضنية خلف ظهرها .

ها قد تجاوزت تلك المرحلة التي أخذت من جهدها ووقتها أيما جهد و أيما وقت .

ها قد أصبحت الشهادة ملك يدها أخيرا ..

كانت أسعد إنسانة في ذلك اليوم ، ولم تكد الدنيا تسع جذلها ، في اللحظة التي أمسكت بها شهادة التخرج ، مر شريط سريع لذكرياتها أمام عينيها ، وكم تمنت أن يكون والدها معها في تلك اللحظة ، فاستسلمت لعبراتها التي كفكفتها بعسر بالغ ، انتهى الحفل ، ودعت ليلى أمها وأختها ، وعاد الجميع إلى المنزل من أجل العشاء الذي تفانت الجدة في إعداده .

تهالكت ليلى على كرسي مكتبها في إعياء ، نظرت إلى أدواتها وإلى الأوراق المكدسة على طاولة المكتب ، فابتسمت وهي تتذكر كل تلك الليالي التي سهرتها من أجل الحفظ والمذاكرة ، تذكرت كل سنوات البحث والدراسة في الجامعة ، فابتسمت فقد انتهى كل شيء .. حملت الشهادة في يدها مرة أخرى تتأملها ، فتنحدر عبراتها رغما عنها ، ما أجمل أن يرى الإنسان نفسه ناجحا ومتميزا ! حقا ذلك هو أجمل شعور .

***

سبتمبر 2024

مضت ثلاثة أشهر منذ أن استلمت ليلى شهادة تخرجها ، ولكنها لم تستطع إيجاد وظيفة محامي ، مع أن دراسة الحقوق تؤهلها للعمل كموظفة في شركة أو حتى مُدَرِّسة ، وقد عثرت على العديد من الفرص ولكنها رفضت لأن هدفها الوحيد هو أن تكون محامية ، وقد بات البحث عن عمل أكثر شيء يهمها وصار شغلها الشاغل .

توكلت على الله وخرجت من المنزل في ذلك الصباح ، متوجهة نحو مكتب محامٍ كان قد دلّه عليه أحد أساتذتها ، سارت طويلا بين ربوع المدينة حتى وصلت إلى العنوان المطلوب ، تقدمت إلى الداخل بكعبها العالي الذي راح يضرب الأرضية بحركات متناسقة ، ثم طرقت الباب ودخلت إلى المكتب وقالت للأستاذ المتهالك على كرسي مكتبه :

صباح الخير .. أظنك الأستاذ "أحمد الشلفي" أليس كذلك ؟

ابتسم السيد وقال :

نعم يا آنسة ، أنا المحامي أحمد الشلفي ، تفضلي ، ماذا تريدين ؟

جلست ليلى بتوتر على الكرسي المقابل لكرسي المحامي وقالت :

سيدي أنا لست هنا لأطلب منك الدفاع عن قضية ، وإنما أريد فرصة عمل في مكتبك بصفتي حاملة لشهادة الماجيستر في الحقوق ، لقد دلني على مكتبك أحد أساتذتي .

قال الأستاذ "أحمد" :

متى تخرجت ؟

أجابت ليلى بثقة :

تخرجت في شهر ماي من هذا العام .

ثم سلمته ملف أوراقها الشخصية .

راح " أحمد الشلفي " يقلب الأوراق بين يديه ويتمعن قراءتها ، في حين كانت ليلى متوترة للغاية وتتوسل إلى الله كي يفتح لها هذا الباب ، ابتسم المحامي وقال :

يمكنني قبولك محامية في مكتبي يا آنسة ليلى .

أجابت ليلى في عدم تصديق :

حقا ! شكرا جزيلا لك سيدي .. متى أستطيع أن أبدأ العمل ؟

أجاب أحمد :

عندما يحين الوقت المناسب أخبرك .

أجفلت ليلى عند سماعها كلماته فهي كانت تريد أن تبدأ العمل في أقرب وقت ، فقال أحمد وكانه قرأ أفكارها :

لا تقلقي ، لن يطول الأمر كثيرا ، سأراجع ملفك جيدا ، ثم أطلب منك المجيء للعمل .

ابتسمت ليلى في امتنان ثم شكرت "أحمد" وغادرت المكتب وكلها سعادة فقريبا جدا يتحقق هدف عاشت من أجله كل سنوات حياتها .

سبتمبر 2024

كانت ليلى تتصفح روايتها التي شرعت في قراءة فصولها المشوقة قبل أيام ، وترتشف قهوتها الدافئة المسائية كعادتها ، فجأة ، رن هاتفها وكان الاتصال من رقم مجهول ، حدقت ليلى جيدا في الرقم ، ثم ضغطت على زر الرد ، جاءها صوت رجالي من الخط الآخر :

السلام عليكم

ردت ليلى التحية :

وعليكم السلام .

أجاب المتصل :

آنسة ليلى ، أنا المحامي أحمد الشلفي .

أجابت ليلى في سعادة :

أهلا بك أستاذ أحمد .

قال أحمد :

يمكنك القدوم للعمل غدا يا آنسة .

قالت ليلى وهي تكاد تقفز جذلا :

شكرا جزيلا لك أستاذ ، سأكون في المكتب غدا صباحا لمباشرة العمل . طابت أمسيتك .

ثم أغلقت الخط وأغلقت روايتها ، قامت من مكانها وارتمت على سريرها وابتسمت وهي تحدق في السقف وتردد "الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات " . كانت تعد الساعات شوقا حتى يحل صباح الغد لتذهب إلى عملها ، وعندما أسدل الليل ستارته السميكة على سماء المدينة ، لم تستطع النوم إلا بعد وقت طويل من التفكير.

رن المنبه معلنا عن وقت استيقاظ ليلى ، فقامت من مكانها مبتسمة ، ارتدت فستانا أزرق طويلا ، وسترة قصيرة ، ثم سرحت خصلات شعرها الكستنائي الطويل وأسدلته خلف كتفيها ، اختارت أقراطا طويلة ، انتعلت ساعة يدها ، ووضعت نظاراتها الشمسية السوداء ، وبسرعة حملت حقيبة يدها وانتعلت كعبها العالي لتبدو أكثر طولا ، ثم ألقت نظرة أخيرة على شكلها في المرآة وخرجت مسرعة . ركبت الحافلة متوجهة نحو المكتب ، وبين الفينة والأخرى تنظر إلى ساعة يدها لتتأكد بأنها ليست متأخرة ، وصلت أخيرا ، ابتسمت وهي تنظر إلى اللافتة الكبيرة التي وضعت فوق باب المكتب ، ثم توكلت على الله ودخلت :

صباح الخير أستاذ أحمد كيف حالك ؟

تأمل أحمد الشابة الفاتنة الواقفة أمامه لبرهة ثم قال مبتسما :

صباحك سعادة يا وجه البشر ، تفضلي .

أطرقت ليلى في حياء ، وجلست على الكرسي المواجه لشابة كانت تجلس أمامها تمعن النظر فيها ، في هذه الأثناء قال أحمد وهو يشير بيده إلى الشابة الشقراء ، قاطعا الصمت المسيطر على الأجواء :

آنسة ليلى أعرفك المحامية "حياة" زميلتنا في العمل في هذا المكتب .

ابتسمت ليلى ومدت يدها لتصافح حياة قائلة :

أهلا بك أستاذة حياة ، تشرفت بمعرفتك .

مدت الشقراء المتغطرسة يدها مصافحة ليلى وهي تقول :

أهلا بك ، أنا أعمل هنا منذ سنة ، والمكان هنا رائع ، أرجو لك حظا طيبا في العمل معنا.

قال أحمد مبتسما :

تعالي لأدلك على غرفة مكتبك أستاذة ليلى .

كانت تلك أول مرة يناديها أحد بالأستاذة" ابتسمت في رضا على وقع هذه الكلمة وأومأت برأسها إيجابا ، ثم سارت خلف "أحمد" في الرواق المؤدي إلى مكتبها ، فتح لها الباب وأشار لها بالدخول قائلا :

تفضلي هذا هو مكتبك ، حظا طيبا .

قالت ليلى في امتنان :

شكرا جزيلا لك .

ثم دخلت مكتبها وهي تقلب نظراتها بين أرجائه ، جلست على كرسيها المتحرك ، ووضعت حقيبتها على المكتب ، وطالعت ملف القضية الأولى التي ستتولى الدفاع عنها .

انقضى أول يوم لها في العمل بسلام ، عادت ليلى إلى المنزل وبينما هي تنتزع حذائها ، جاءها صوت آدم من خلفها :

أهلا بمحاميتنا .

التفتت ليلى خلفها وبادلته الابتسامة قائلة :

مرحبا آدم ، كيف حالك ؟

أجابها : جيد جدا ، كيف كان يومك الأول في العمل ؟

قالت ليلى بحماس:

رائع جدا ، لي مكتب خاص ، واستلمت ملف أول قضية اليوم ، سأبدأ العمل عليها ، أتشوق لرؤية موكلتي التي لم تظهر بعد !

ابتسم آدم وهو يرى حماسها للعمل وقال :

موفقة بإذن الله .

قالت ليلى :

شكرا لك .

وذهبت إلى غرفتها ، كان آدم ينظر إلى ليلى بإعجاب كبير ، فهي مثال للمحامية المتألقة ، الطموحة والمخلصة في عملها ، طالما كانت تعده أخا بالنسبة لها فقد نشأ معا منذ الطفولة إلى أن اشترى والده بيتا في ضواحي المدينة ، أما آدم فهو متيم بها ويراها الفتاة المثالية له .

جانفي 2025

مرت الأيام وليلى تعمل بجد واجتهاد ، تناولت العديد من القضايا وكسبت معظمها لصالحها ، كان السيد أحمد الشلفي ، يفخر بعملها معه ، ولم يندم على توظيفها فهي كانت مثالا للشابة المجتهدة في عملها ، فقد كانت تعمل بحب وإخلاص . لم تكن ليلى قد فتحت ملف قضية والدها بعد ، لكن بعد هذا العدد من القضايا التي دافعت فيها فقد صارت لها الخبرة أكثر من السابق ، قامت من كرسي مكتبها وتوجهت نحو مكتب زميلها أحمد الذي كان له من الخبرة في المحاماة سنوات كثيرة ، كانت تدرك بأنه إنسان متفهم ويحترمها كثيرا لذا فقد قررت إخباره بموضوع والدها عله يساعدها ، طرقت الباب بهدوء وتقدمت بخطوات مترددة ، جلست على الكرسي المقابل لكرسي أحمد وقالت :

أستاذ أحمد ، هناك موضوع يجب أن أحدثك عنه .

ابتسم أحمد وقال :

أنا أسمعك استاذة ليلى تفضلي .

قالت ليلى بتوتر بالغ :

في الحقيقة ، هذا الموضوع الذي سأحدثك به الآن أعتبره سرا من أسراري الشخصية ، ومن أهم أشيائي لذا أريد أن أحدثك عنه علك تساعدني يا أستاذ .

قال أحمد وقد تشوق لكلام ليلى :

طبعا سأساعدك إن استطعت لم لا !

قالت ليلى وقد ابتسمت بمرارة :

الأمر يخص والدي السجين .. لقد دخل السجن لمدة عشرين عاما ظلما وهو بريء لا ذنب له !

صعق أحمد من كلامها ، ثم قال مشجعا إياها للمواصلة :

أسمعك ليلى ، حدثيني عن قضيته .

راحت ليلى تحكي له تفاصيل حكايتها الأليمة ، وكيف دخل والدها السجن وهو بريء وحكم عليه بالمؤبد ، وكيف حرمت منه طيلة سنوات حياتها ، ثم حكت له عن سبب دراستها للمحاماة وقد استسلمت لعبراتها الحارة التي راحت تتسرب من عينيها بدون إرادتها .. شعر أحمد بالأسف الشديد لما قالته وحاول تهدئتها ثم قال لها :

لم أكن أتوقع أن ليلى المتفائلة والقوية ، والصارمة في دفاعها أمام القاضي ، تكون قد عاشت من الأسى كل هذا ! لكن يا ليلى أعدك بأنني سأعمل جاهدا على مساعدتك أنت ووالدك ، أعدك يا ليلى .

نظرت ليلى إلى عينيه الممتلئتين بالأمل والجد ، فمسحت دموعها وابتسمت أملا وقالت :

أنا أثق بأنك ستساعدني.

ابتسم أحمد قائلا :

سنبدأ العمل على القضية من يوم غد .

تفاجأت ليلى بكلامه ، فهي عندما قررت إخباره لم تكن تظن بأنه سيكون جادا لهذه الدرجة فقالت بامتنان :

شكرا لك ، إذن نبدأ العمل على القضية غدا .

ثم استدارت متوجهة نحو مكتبها ، في هذه الأثناء ناداها أحمد: "ليلى"

التفتت ليلى خلفها لتنظر إليه فإذا به يقول :

لا تبكي مرة أخرى يا ليلى ، فالدموع لا تناسبك .

توردت وجنتاها حياء ولم تعرف ماذا تقول ، فخفضت رأسها وواصلت طريقها إلى مكتبها .

ها قد ظهر بريق أمل جديد ، وطرف خيط ستتشبث به ، قد يقودها إلى اليوم الموعود .

مارس 2025

خلال الأيام الموالية ، تفانت ليلى في البحث عن ثغرات عدة في قضية أبيها ، وقد أعدت ملفا كاملا يخص قضيته وعملت عليه بجد مع زميلها أحمد .

سلمت ليلى ملف القضية لأحمد في امتنان وقالت :

أخيرا أصبح ملف قضية أبي جاهزا لإعادة النظر فيه ، أرجو أن تسلمه للمحكمة وأن يتحدد موعد المحاكمة في أقرب وقت .

أمسكه أحمد وقال بثقة :

لا تخشي شيئا ، أنا متأكد بأننا سننجح ، ستظهر البراءة بعد رحلة بحثنا المضنية عن كل الثغرات التي ستساعدنا .

تبادلا ابتسامات صادقة ثم خرجت ليلى بعد انتهاء عملها ، وذهبت لزيارة أبيها في السجن .

هتفت ليلى بسعادة :

صباح الخير أبي ، كيف حالك ؟

أجابها والدها من الخط الآخر :

جيد جدا ، الحمد لله ، ماذا عن محاميتي البطلة ؟

ابتسمت ليلى بود وقالت :

الحمد لله ، بالمناسبة أنا وزميلي في العمل بحثنا عن العديد من الأدلة التي قد تثبت براءتك ، وعملنا على إنجاز ملف يخص قضيتك ، وأرسلنا طلبا لإعادة النظر فيها اليوم إلى المحكمة ، وننتظر تحديدهم ليوم المحاكمة .

رفع والدها حاجبيه في عدم تصديق وقال :

شكرا جزيلا لك على جهودك يا ابنتي الغالية

قالت ليلى :

هذا أقل ما يمكنني تقديمه لك يا أبتي ، يجب أن تكون جاهزا للمحاكمة ، قريبا جدا قد ينتهي كل شيء ونعود كما كنا .

تلألأت دمعة في عيني الأب وهو يرى ابنته التي خلفها صغيرة ، شابة وسيمة ، ومحامية نشيطة تحاول بشتى الطرق إسعاده وبينما هو ينظر إلى حماسها بإعجاب وافتخار ، رن صوت الصافرة المزعج معلنا عن نهاية الزيارة ، أشارت ليلى بيديها إلى أبيها مودعة ثم قامت من مكانها

، ومشت في سبيلها ، وهي ترجو أن تكون هذه آخر مرة تدخل فيها السجن .

***

ردت المحكمة على طلبنا ، وحددت يوم الأحد المقبل يوما للمحاكمة يا ليلى . قال أحمد موجها كلامه لليلى التي جلست أمامه ترتشف قهوتها .

ابتسمت ليلى في فرحة حقيقية وقالت :

ممتاز ، أرجو أن تسير الأمور كما خططنا لها .

قال أحمد :

والآن ، من منا سيكون المحامي الخاص بوالدك ؟!

أجابت ليلى :

لا أعلم ماذا يمكنني أن أقول لك ، إن دافعت أنت عنه فأنا متأكدة بأننا سنربح القضية وسيكون أبي سعيدا بهذا ، وإن دافعت أنا

فقد نخسرها ولكننا إن ربحناها فسيكون أبي أسعد إنسان لأن ابنته هي التي استعادت حقه .أضاف أحمد :

وأنت كذلك ستكونين سعيدة إن دافعت عن والدك فهذا كان حلمك منذ الصغر ، لذا يا ليلى أقترح أن تكوني أنت المحامية .

سرحت ليلى محدقة في الفراغ أمامها وهي لا تدري ما تفعل ثم قالت :

أستخير الله أولا .

***

الأحد 20 مارس 2025

أقبل يوم الأحد الذي انتظرته ليلى وعائلتها لمدة طويلة ، هذا اليوم الذي سيغير مجرى حياتها ، فإما أن تعود مع والدها ، وإما أن تعود خائبة . خرجت من المنزل متوجهة نحو قاعة المحكمة حيث حسمت قرارها بأن تكون هي محامية أبيها . وصلت أخيرا فوجدت أحمد بانتظارها حيته وجلست بجواره منتظرة أن يعلن الحاجب عن إسم والدها لتتقدم نحو الداخل ، وبينما الصمت والتوتر يسودان المكان قال أحمد :

ليلى كوني قوية أرجوك .

ابتسمت ليلى وقالت :

سأنجح بإذن الله ، سأخرج مع والدي من المحكمة اليوم .

أردف أحمد قائلا :

هناك ما يجب أن أخبرك به بعد المحاكمة .

أعلن الحاجب عن إسم والدها ، فودعت ليلى احمد وتوكلت على الله ودخلت القاعة .

بعد لحظات تقدم والدها مبتسما نحوها ، لأول مرة بعد طول غياب يقف بجوارها ، شعرت بقشعريرة تسري جسدها ، مدت يدها وربتت على يده في حنان فتكهرب جسدها ، وامتلأت عينها بالدموع المنذرة عن هطول وشيك ، لكنها قاومت عواطفها .

أخذت الكلمة ليعلو صوتها الواثق في المحكمة مثل الأيام السابقة ، ولكن هذه القضية لم تكن كأي قضية بالنسبة لها فهي تعني لها الكثير فقد كافحت طويلا حتى تصل إلى هذا اليوم ، وتطلب وقوفها في ذلك المكان جهودا جبارة ، ودأبا ليس بالقليل ، قاومت عبراتها وحاولت أن تكون أكثر قوة وصمودا أمام القاضية المتغطرسة . تنهدت ثم قالت بصمود لتنهي مرافعتها :

شكرا لاستماعكم .

ها قد انهت مرافعتها في القضية ، قدمت كل البراهين و الأدلة التي عكفت على البحث عنها مع أحمد ، وحاولت أن تثبت البراءة بشتى الطرق ، كانت تلك أول مرة تشعر فيها بالقوة والصمود منذ زمن ، لم تكن تدري من أين استمدتها ، ربما لأن والدها كان مصدر قوتها بوقوفه بجوارها .

ساد صمت رهيب قاعة المحكمة ، كانت ليلى قد قدمت كل ما لديها ، ولبثت تنتظر القاضية التي انشغلت بمطالعة ملف القضية ، خرجت ليلى من القاعة بعدما شعرت بأنفاسها تتقطع ، قال أحمد :

كنت رائعة .. لقد فعلت كل ما بوسعك والباقي بين يدي الله .

ثم أشار بيده مودعا وقال :

حان دوري الآن سأرافع في صفه مجددا .

هرول أحمد باتجاه القاعة ، بينما وقفت ليلى بأوصال مخدرة ، وأعضاء مرتجفة واستسلمت لعبراتها المتمردة ، وراحت تناجي الله وتتوسل إليه كي ينقذ والدها هذه المرة .

بينما هي على نفس الحال ، تكاد لهفة الانتظار تقضي عليها ، رن هاتفها وكانت المتصلة منال هتفت منال باكية من الخط الآخر:

مبارك يا ليلى ، صدر حكم البراءة.

قالت ليلى بتوتر وسعادة بالغة :

الحمد لله .

ثم قطعت الخط وتوجهت داخل القاعة بأوصال مرتجفة ، نظرت إلى والدها المبتسم جذلا ، ثم ارتمت في أحضانه ، أخيرا صار حلمها حقيقة ، بكت بحرقة ، بكت وهي تبتسم ، ثم تربت على يدي

والدها ، وتجهش باكية لترتمي في أحضانه مجددا وهي تشعر بأنها في حلم جميل .

خرج السيد أمير من قاعة المحكمة بجواره ابنته البطلة ، تتأبط ذراعه لتساعده على الخروج ، ويمسك بيده الأخرى يد والدته التي أجهشت باكية عند رؤيتها إياه يخرج من المحكمة ، التف حوله إخوته ، ومعارفه وكان يشعر بجذل حقيقي ، فهاهو سيرى نور الشمس بعد سنوات من الظلام .

ركبت ليلى سيارة عمها عائدة إلى البيت برفقة أبيها كما تمنت ، وتحقق حلم كانت تراه شبه مستحيل ، اتصلت بأمها وبشرتها بالخبر السار ، ثم تذكرت أحمد الذي لم تشكره ، فاتصلت به وشكرته جزيل الشكر ، وكانت تنظر إلى والدها الجذل من حين لآخر .

فتبتسم وتحمد الله ، ملأت الزغاريد البيت في ذلك اليوم ، وشرعت النسوة في التحضير لإقامة حفل كبير بمناسبة عودة والد ليلى بعد مدة طويلة في حين انشغلت ليلى بدعوة أصدقائها ومعارفها بمناسبة هذا النجاح وتوسلت إلى أمها كي تحضر .

مارس 2025

كان كل شيء في مكانه و لم يعد ينقص شيء سوى حضور المدعوين ، بعد لحظات كانت القاعة قد اكتظت بالمدعوين ، والجميع كان سعيدا ، راحت ليلى توزع الابتسامات الجذلة وتقف بجوار أبيها وأمها وأمامها أختها تسنيم ، كانت في تلك اللحظة أسعد إنسانة فأخيرا هي تحت جناح والدها ، بعد الآن لن تخش شيئا ، وستقف أمام الحياة وقفة عز وفخر لأن والدها معها ، لم تكن قد عادت إلى العمل بعد ، وطلبت من أحمد عطلة ، فما كان عليه سوى القبول ، لم تتفرغ لطلب تعويض مالي من المحكمة بعد ، لكنها كانت تفكر في فعل كل هذا لاحقا ولم تعد تفكر بأي شيء غير اجتماع والديها وعودتهما كما في السابق .

بينما الجميع مشغولون بالحفل البهيج كان آدم يقف من بعيد ينظر إلى ليلى ، هل يخبرها بحقيقة مشاعره نحوها ويطلب منها أن تكون شريكة حياته ؟ أم يجب عليه أن يؤجل طلبه لأوان لاحق !؟ هل ستوافق ليلى على طلبه يدها للزواج ؟ أم أنها سترفضه لأنه شاب

مستقبله مجهول لم يستطع العمل بشهادته بعد ؟ رمى بكل أسئلته عرض الحائط وتوجه نحوها بخطوات واثقة ، نظر إليها مطولا ثم قال :

ليلى أريد أن أتحدث معك في موضوع هام.

استأذنت ليلى من والديها وذهبت خلف آدم ، بعدما ابتعدا عن ضجيج الحفل وصارا وحدهما قال آدم :

ليلى ، ما سأقوله لك الآن كان يجب أن أقوله منذ مدة ، ولكنني انتظرت هذا اليوم بالذات حتى أخبرك .

ابتلع ريقه وحدق في عينيها وقال :

ليلى أريد أن أتقدم لخطبتك من والدك .

صعقت ليلى من كلماته ، توقف الزمن حولها ، وتاهت الكلمات منها وحدقت في آدم في عدم استيعاب ، ثم جمعت أفكارها وقالت :

آدم ، طالما كنت أعدك أخا لي ، أنت إنسان رائع قد تتمناك ألف فتاة ولكن بالنسبة لي يا آدم ، فأنا أريد أن أستثمر ما تبقى من حياتي في العيش مع أسرتي التي تفرقت طوال السنين الماضية ، يجب أن أقنع أمي بفكرة زواجها بأبي ، ونعود أسرة كما كنا ، أريد أن أعيش بين أحضان والدي وأختي يا آدم ، أنا آسفة أنا لا أريد الزواج .

قاطعها آدم بحدة :

إن شئت يمكنك قضاء سنوات مع والديك ، سأنتظرك يا ليلى .

ابتسمت ليلى بأسف وقالت :

المسألة ليست مسألة وقت يا آدم ، ففكرة الزواج لا تعنيني ، أعتذر منك سأذهب إلى الحفل .

ثم ذهبت وتركته متسمرا في مكانه .. شعر بحسرة كبيرة وندم لأنه أخبرها فهو الآن لا يمكنه أن يتزوجها ولا حتى أن يستعيد مكانته المرموقة كأخ مميز في نظرها .

***

بعد سنة ..

أخيرا انتهى ذلك الكابوس المرعب ، انتهى الشوق والفراق ، والحزن واليتم ، انتهت الوحدة ، وبدأت ليلى مرحلة جديدة من حياتها ، هاهي قد حصلت على تعويض من الحكومة ، اشترى والدها منزلا خلابا في ضواحي المدينة ، وقد نجحت في إقناع والديها بالزواج مجددا بكل سهولة ، عادت المياه إلى مجاريها أخيرا ، واجتمعت العائلة، وكانت ليلى ترى نفسها أسعد فتاة ، فلديها أحن أب في الدنيا يحميها ويعطف عليها ، وأم متفهمة ورؤوفة بها ، بالإضافة إلى أخت جميلة تشاركها كل تفاصيل حياتها ، واصلت ليلى عملها في مكتب أحمد ، وصارت محامية معروفة يُعتمد عليها في أصعب القضايا ، أصبحت ترتدي الحجاب الإسلامي بعدما اقتنعت به ، وتمسكت بدينها أكثر فأكثر ، كانت مثالا للإبنة البارة لوالديها ، والمجتهدة ، فنشوتها وإرادتها القويتان صنعتا منها بطلة قوية لا تخشى المخاطر .

تمت بحمد الله .

هذه الرواية حقيقية ، تعرفت على بطلتها ليلى على مواقع التواصل الاجتماعي ، وسردت علي تفاصيل حكايتها المؤلمة ، فخرجت بفكرة رواية بعد مدة مع إضافة مسحة خيال بسيطة من أجل نهاية أجمل في نظر القارئ .